طلقة (١٠)

(في الكونغو)

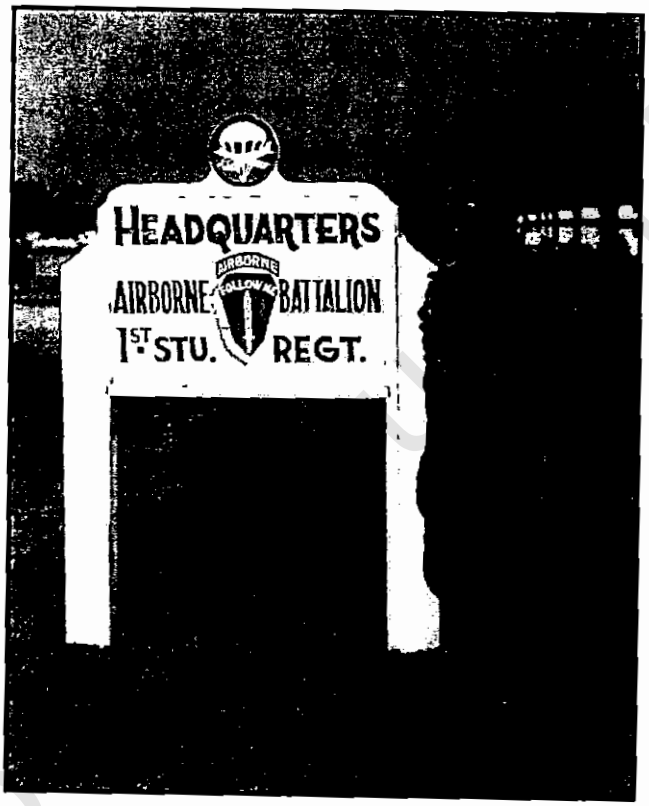

لليمن ... حسابات أخرى

هذه شهاداتي لوجه الله والتاريخ أقولها بكل صدق: جيوش مصر التي ذهبت إلى الكونغو ومن بعدها إلى اليمن لم ترهق ميزانية الدولة أو تحملها فوق طاقتها، في الكونغو تولت الأمم المتحدة معظم نفقات الإقامة والإعاشة والانتقال وفي اليمن كانت ميزانية الإنفاق محدودة، لكن أبعد من الأمور المادية كانت السياسة المصرية لها كلمتها في الميدان العربي والافريقي ويكفي أن القوى العظمى كانت تعمل ألف حساب وبالأرقام تقول أن ديون مصر وقت وفاة عبدالناصر أقل من ٢ مليار دولار، وانظر إلى تكلفة بناء المصانع والسد العالي والمنشآت الأخرى سنجد أنها تفوق الـ ٢ مليار أي أنك تنفق على مشاريع، لكن الديون بعد ذلك تضاعفت عشرات المرات والمردود على المواطن والوطن لا شيء، وقد كنا خلال فترة ناصر دخلنا خمسة حروب، وبعد ٧٣ لم ندخل حربا واحدة ومع ذلك زادت الديون. هكذا يتحدث الشاذلي:

حربي وليس عسكري

ونعود إلى لندن عام ١٩٦١ التي ذهب اليها الفريق كملحق حربي وليس عسكرياً، والاختلاف بينهما أن الحربي يمثل جميع القوات الجوية والبحرية والبرية، لكن العسكري يمثل البرية فقط، وأتاح له ذلك حضور مناورات للجيش البريطاني واكتساب خبرات جديدة، ويقول : ركبت حاملة طائرات وعشت معهم لمدة أسبوع كمراقب لهذه التدريبات ونوعية السلاح وكيفية استخدامه، ولندن متميزة في هذا الجانب... يا سبحان الله مرة أخرى السياسة تلعب لعبتها، حيث لا عداء دائم ولا صداقة دائمة، فهذه انكلترا الدولة الاستعمارية أشهد مناوراتها العسكرية رسميا وتفتح لي أبواب جديدة للمعرفة الميدانية تزيد من خبراتي وعلى أرضها، والبعض ربما يفسر أبعاد رجل الجيش إلى سفارة من السفارات كملحق عسكري أو حربي كنوع من الإبعاد أو العقاب، لكن هناك تفسيرا آخر بأنه التقدير وهذا يتوقف على نظرة القيادة للضابط والمكان الذي سيعمل فيه ويسافر اليه.

وفي هذا العمل أن تتحرك كعسكري بغطاء دبلوماسي يسمح لك أن تلتقي بشخصيات عسكرية من جنسيات عديدة في الحفلات وهي شبه يومية، وهو يلتقط المعلومات التي قد تفيد بلده حتى انه يقال في بعض الأحيان انها مهمة تجسسية مشروعة، ولان الشاذلي يحسبها جيدا ويحاول استثمار كل فرصة لصالح مصر ولخبراته التي هي تعود في نهاية المطاف إلى بلده كان يضع لنفسه شعارا في هذا الوقت يقول: عدو إسرائيل هو صديقي. لذلك تحركت مع الأحزاب المعادية لإسرائيل والموالية إلى حد ما للعرب وهي غالبا اليسارية وبعضها كان في السلطة والبعض الآخر كان بعيدا عنها، وحدث أنني التقيت برئيس أحد الأحزاب المعادية لليهود وكانوا في بريطانيا يصفونه على انه نازي ويطالب بطرد اليهود من فلسطين وزارني في مكتبي واستقبلته، وبعد ذلك اقتحموا مكتبه ووجدوا بعض الأوراق تدل على علاقته معي، وتم تسريب الخبر إلى بعض الصحف البريطانية التي أرادت استثمار ذلك وخرجت تقول أن الملحق الحربي المصري على اتصال بالنازيين، وان مسؤولا أخذ دعما من السفارة المصرية، ومع ذلك لم يبلغ الأمر درجة التحقيق معي، لأنها اتهامات شفوية لا تستند إلى دليل، ولو ثبت أنها صحيحة لصدرت الأوامر فورا باعتباري شخصية غير مرغوب فيها ويجب ترك بريطانيا.. ومعنى ذلك أن النفوذ الصهيوني في بريطانيا كان قويا وان العداء لمصر كان واضحا رغم وجود علاقات دبلوماسية لأنهم مثلا فيما كتبوا أكدوا أنني زرت مسؤول الحزب هذا في مكتبه وهو أمر لم يحدث لكنه زارني في ظروف عادية جدا أخذت أكثر من حجمها، وقضيت في لندن حوالي ٣ سنوات عدت بعدها إلى مصر في عام ١٩٦٤، لكي تكون وجهتي التالية هي اليمن!.

نظرة تحليلية

كانت نظرة القيادة المصرية إلى النظام السياسي في اليمن الذي كان متخلفا بشكل بشع، ثم كان الأهم النظر إلى استقلال عدن بموقعها المهم سيؤثر على

الكثير من دول الخليج وبالتالي على الأمن المصري والعربي، والسياسة تلعب دائما على بُعد النظر، وكنا نمد الثوار بالسلاح والذخيرة وأنت هنا كدولة، تمسك بزمام الأمور، وقد تراجع الدور المصري غربيا وافريقيا بسبب نظرة مبارك المحدودة، والفارق كبير كما يقول الشاذلي بين أن تعطي السلاح عن بعد، وان تتواجد قواتك ستكون العملية سهلة وأيسر ومأمونة، وقد كان للتواجد المصري آثاره الايجابية على استقلال الإمارات والبحرين وقطر والكويت أو بمعنى آخر عجل بالاستقلال، ويؤكد الشاذلي أن مخزون الذهب المصري لم ينفذ بسبب اليمن، وقد سمع من عبدالناصر نفسه أن الدولة رصدت مصاريف النقل البحري من السويس إلى اليمن إلى جانب المرتبات، وكان الضابط يأكل مثل الجندي ويحصل على ٤٠ ريالا مكافأة، بخلاف راتبه في مصر وهي أرقام عادية، ثم أن الحرب في اليمن لم تكن تقليدية فهي أقرب إلى حرب العصابات، حيث كان اليمني يدفن اللغم في الطريق ثم ينسى مكانه، وقد ينفجر فيه هو دون أن ينتبه، وبذلك لم يكن جيشا بالمعنى المفهوم، وأحيانا كانت هذه العصابات تطلع على سيارات التموين التي تأتي من صنعاء أو من مصر ويتم توزيعها على الوحدات، وبالتالي تحاول أن تستولي عليها، وأنت لم تكن ترى عدوك أمامك فهذه العصابات تطلع عليك بطريقة خاطفة من هنا أو هناك، وبصراحة نظام الحرب هذا وضع الجيش في أخطاء عسكرية عديدة، أنت تحارب بأسلوب نظامي عدو غير نظامي كما أن جنودنا كانوا ينظرون باستهتار إلى العصابات وتكون النتيجة عكسية، لان الجبال والطبيعة هم أدري بها وأعلم، ومع ذلك كانت خسائرنا طوال سنوات وجودنا في اليمن لا تزيد على ألف شهيد، وهو رقم متواضع ولذلك تحولت حرب اليمن إلى خرافة ومجموعة أكاذيب ومبالغات والواجب في مثل هذه الأمور الرجوع إلى الأرقام والحقائق ويعترف الشاذلي صراحة أن أسوأ ما في حرب اليمن أنها وضعت الجيشين المصري والسعودي وجها لوجه، خاصة في منطقة الجوف التي كانت تساعد الملكية اليمنية لان الأمر في غاية الصعوبة أن يتواجه العربي مع أخيه

العربي بالسلاح تحت أي ظرف.

ومع ذلك في الحصاد النهائي وكما قال الشاذلي تكون مكاسب حرب اليمن من الناحية السياسية أكبر من خسائرها المادية والبشرية التي تبدو بسيطة للغاية وأجمل ما يمكن ذكره في هذا الجانب أن هذه المكاسب عادت على مصر ودول الخليج، كذلك لولا استقلالها الذي تم بالتواجد المصري ما أمكنها أن تنعم بثرواتها إلى هذا الحد وتساهم من خلاله في الحرب مع مصر، أيضا لولا استقلال اليمن الذي دفعت فيه مصر الثمن استطعنا في عام ٧٣ نغلق باب المندب بعد استقلال اليمن وعدن، وعلينا أن نعرف بان المكاسب قد لا تتحقق في وقتها، لكنها قد تأتي بعد سنوات كما ترى.

من اليمن إلى سيناء

السؤال الذي يربط بين تواجد مصر في اليمن، وخسارتنا في حرب ٦٧ طرحه الزميل أحمد منصور على الفريق الشاذلي في برنامج شاهد على العصر الذي قال: أحيانا نحاول أن نجد لأنفسنا المبررات لأخطاء نرفض الاعتراف بها، نعم كانت لمصر قوة كبيرة في اليمن وهي مسألة لا تسمح لك بالدخول في حرب أخرى على أرض سيناء وكان الواجب أن تنهي المشكلة اليمنية قبل أن تولي وجهك شطر سيناء ودخول الحرب مع إسرائيل التي بالغت في الاستفزاز، ومع ذلك لا يمكن بحال أن نجزم بان حرب اليمن كانت سببا في خسارة أو نكسة ١٩٦٧، والحقيقة أن هناك أخطاء قيادية سياسية وعسكرية من الواجب الاعتراف بها لأنها واضحة.

وهنا يعلن الكاتب مصطفى عبيد عن رأيه صراحة في كتابه الشاذلي.. «العسكري الأبيض» وفي الفصل الذي جاء بعنوان ورطة اليمن استهله بعبارة لنابليون بونابرت قال فيها: جيش من الوعول يقوده أسد، خير من جيش من الأسود يقوده وعل، وهو بهذا يمهد لقناعته بان الكونغو كانت مناورة، لكن اليمن

كانت مغامرة، في الكونغو كسبنا المعركة بدون دم وفي اليمن خسرنا علاقتنا بنصف العالم العربي بعد أن سفحت دماء الآلاف من المصريين ذبحا في الصحراء.

ويعتبر مصطفى أن دفاع الشاذلي عن حرب اليمن ومكاسبها جاء من جانب عاطفي يدفعه اليه في المقام الأول حبه لجمال عبدالناصر لان حرب اليمن بشهادة المؤرخين العسكريين هي المطب الصناعي الذي حطم سيارة عبدالناصر المندفعة بسرعة في طريق النهضة، وهو يميل هنا إلى رأي الكاتب الكبير الراحل وجيه أبو ذكرى في كتابه مذبحة الأبرياء، لكننا هنا من الواجب أن نستمع إلى شهادة الفريق عبدالمحسن مرتجى الذي كان قائدا لقواتنا في اليمن بعد الفريق أنور القاضي، حيث قال: عندما كنت قائدا لقواتنا في اليمن جاء عبدالناصر وكان زميلي لمدة عامين في كلية أركان حرب وهو وحده الذي تحدث عن المعركة مع إسرائيل وكان ذلك في عام ١٩٦٤ فقال: كنت مخططا أن أصعد الأمور مع إسرائيل في عام ١٩٦٥ ولكن بعد تورطنا في اليمن لا أعتقد أنني أفكر في هذا الموضوع قبل عام ١٩٧٠، وسأفكر جيدا وأدرس الموقف دراسة عميقة قبل الدخول في صراع مسلح مع إسرائيل وحكاية الورطة هذه يقدمها سامي جوهر في كتابه الصامتون يتكلمون، وتبدأ عندما جاءت الأخبار تعلن عن انقلاب مسلح ضد حكم الأمير البدر بقيادة عبدالله السلال، وقرر عبدالناصر ارسال سرية عسكرية بحرا تضم مائة شخص لمساندة الثورة، وهناك اكتشفوا أن البدر مايزال حيا وان الكثير من القبائل تقاتل معه وان مصر تعرضت لخديعة، الا أن عبدالناصر لم يستطع التراجع حفاظا على كرامته واضطر أن يدفع بأعداد كبيرة من الجنود بلغت ٧٠ ألفا، لكن الكاتب محمد حسنين هيكل وهو المقرب من عبدالناصر له رأي آخر!

خارج السياق :

أسد الصاعقة

هذا واحد من أبرز تلاميذ الفريق الشاذلي في ميدان الصاعقة.. انه العميد ابراهيم الرفاعي عبدالوهاب لبيب (٢٧ يونيو ١٩٣١ ١٨ أكتوبر ١٩٧٣) قائد سلاح العمليات الخاصة في حرب أكتوبر ١٩٧٣. قائد المجموعة ٣٩ الشهيرة بأداء العمليات الانتحارية. أسطورة العمليات الخاصة. قام بتنفيذ ٧٢ عملية انتحارية خلف خطوط العدو من بين ٦٧، ١٩٧٣. قام بتدمير معبر الجيش الإسرائيلي على القناة الدفرسوار. حصل على ١٢ وساما تقديريا لشجعاته استشهد في حرب أكتوبر فكان استشهاده أروع خاتمة لبطل عظيم.

ولد ابراهيم الرفاعي في حي العباسية بالقاهرة لأسرة تنحدر من محافظة الدقهلية في ٢٧ يونيو ١٩٣١، وقد ورث عن جده (الأميرالاي) عبدالوهاب لبيب التقاليد العسكرية والرغبة في التضحية فداءاً للوطن، كما كان لنشأته وسط أسرة تتمسك بالقيم الدينية أكبر الأثر على ثقافته وأخلاقه.

التحق ابراهيم بالكلية الحربية عام ١٩٥١ وتخرج ١٩٥٤، وأنضم عقب تخرجه إلى سلاح المشاة وكان ضمن أول فرقة قوات الصاعقة المصرية في منطقة (أبو عجيلة) ولفت الأنظار بشدة خلال مراحل التدريب لشجاعته وجرأته منقطعة النظير.

تم تعيينه مدرسا بمدرسة الصاعقة وشارك في بناء أول قوة للصاعقة المصرية وعندما وقع العدوان الثلاثي على مصر ١٩٥٦ شارك في الدفاع عن مدينة بورسعيد. يمكن القول أن معارك بورسعيد من أهم مراحل حياة البطل ابراهيم الرفاعي، اذ عرف مكانه تماما في القتال خلف خطوط العدو، وقد كان لدى البطل اقتناع تام بأنه لن يستطيع أن يتقدم ما لم يتعلم فواصل السير على طريق اكتساب

الخبرات وتنمية امكانياته فالتحق بفرقة بمدرسة المظلات ثم أنتقل لقيادة وحدات الصاعقة للعمل كرئيس عمليات. أتت حرب اليمن لتزيد خبرات ومهارات البطل أضعافا، ويتولى خلالها منصب قائد كتيبة صاعقة بفضل مجهوده والدور الكبير الذي قام به خلال المعارك، حتى أن التقارير التي أعقبت الحرب ذكرت انه ضابط مقاتل من الطراز الأول، جريء وشجاع ويعتمد عليه، يميل إلى التشبث برأيه، محارب ينتظره مستقبل باهر. خلال عام ١٩٦٥ صدر قرار بترقيته ترقية استثنائية تقديرا للأعمال البطولية التي قام بها في الميدان اليمني.

بعد معارك ١٩٦٧ وفي يوم ٥ أغسطس ١٩٦٨ بدأت قيادة القوات المسلحة في تشكيل مجموعة صغيرة من الفدائيين للقيام ببعض العمليات الخاصة في سيناء، باسم فرع العمليات الخاصة التابعة للمخابرات الحربية والاستطلاع كمحاولة من القيادة لاستعادة القوات المسلحة ثقتها بنفسها والقضاء على احساس العدو الإسرائيلي بالأمن، وبأمر من مدير ادارة المخابرات الحربية اللواء محمد أحمد صادق وقع الاختيار على ابراهيم الرفاعي لقيادة هذه المجموعة، فبدأ على الفور في اختيار العناصر الصالحة للتعاون معه.

كانت أول عمليات هذه المجموعة نسف قطار للعدو عن الشيخ زويد ثم نسف مخازن الذخيرة التي تركتها قواتنا عند انسحابها من معارك ١٩٦٧، وبعد هاتين العمليتين الناجحتين، وصل لإبراهيم خطاب شكر من وزير الحربية على المجهود الذي يبذله في قيادة المجموعة.

مع الوقت كبرت المجموعة التي يقودها البطل وصار الانضمام اليها شرفا يسعى اليه الكثيرون من أبناء القوات المسلحة، وزادت العمليات الناجحة ووطأت أقدام جنود المجموعة الباسلة مناطق كثيرة داخل سيناء، فصار اختيار اسم لهذه المجموعة أمر ضروري، وبالفعل أُطلق على المجموعة اسم المجموعة ٣٩ قتال، وذلك من يوم ٢٥ يوليو ١٩٦٩ وأختار الشهيد البطل ابراهيم الرفاعي

شعار رأس النمر كرمز للمجموعة، وهو الشعار نفسه الذي اتخذه الشهيد أحمد عبدالعزيز خلال معارك ١٩٤٨.

كانت نيران المجموعة أول نيران مصرية تطلق في سيناء بعد نكسة ١٩٦٧، وأصبحت عملياتها مصدرا للرعب والهول والدمار على العدو الإسرائيلي أفرادا ومعدات، ومع نهاية كل عملية كان ابراهيم يبدو سعيدا كالعصفور تواقا لعملية جديدة، يبث بها الرعب في نفوس العدو. تناقلت أخباره ومجموعته الرهيبة وحدات القوات المسلحة، لم يكن عبوره هو الخبر انما عودته دائما ما كانت المفاجأة، فبعد كل اغارة ناجحة لمجموعته تلتقط أجهزة التصنت المصرية صرخات العدو واستغاثات جنوده، وفي احدى المرات أثناء عودته من اغارة جديدة قدم له ضابط مخابرات هدية عبارة عن شريط تسجيل ممتلئ باستغاثات العدو وصرخات جنوده. وبسالة وشجاعة المجموعة ٣٩ قتال للأسف لم تجمع حتى اليوم نظرا لانتساب جميع أفرادها للمخابرات وطبقا لمبدأ حماية هوياتهم لم يتم نشر موسع لعملياتهم.. وقد يكون ما أعلمه عنهم ضحلا للغاية ولا يذكر، فهم الذين قاموا صباح استشهاد الفريق عبدالمنعم رياض بعبور القناة واحتلال موقع المعدية رقم ٦ الذي أطلقت منه القذائف التي تسببت في استشهاد الفريق رياض وابادة ٤٤ عنصر إسرائيلي كانوا داخله بقيادة الشهيد ابراهيم الرفاعي الذي كانت أوامره هي القتال باستخدام السونكي فقط. وكانت النتيجة أن إسرائيل تقدمت باحتجاج لمجلس الأمن في ٩ مارس ١٠٦٩ أن قتلاها تم تمزيق جثثهم بوحشية.

كما أن المجموعة ٣٩ قتال هي صاحبة الفضل في أسر أول أسير إسرائيلي في عام ١٩٦٨ عندما قامت أثناء تنفيذ أحد عملياتها بأسر الملازم الإسرائيلي داني شمعون بطل الجيش الإسرائيلي في المصارعة والعودة به للقاهرة دون خدش واحد.

وكانوا أول من رفع العلم المصري في حرب الاستنزاف على القطاع المحتل،

حيث بقي العلم المصري مرفرفا ثلاثة أشهر فوق حطام موقع المعدية رقم ٦. وفي ٢٢ مارس ١٩٦٩ قام أحد أفراد المجموعة القناص مجند أحمد نوار برصد هليوكوبتر عسكرية تحاول الهبوط قرب الموقع وبحاسته المدربة ومن مسافة تجاوزت الكيلو متر ونصف اقتنص رأس أحدهم وكان القائد الإسرائيلي العام لقطاع سيناء. كانوا الفرقة الوحيدة التي سمح لها الرئيس جمال عبدالناصر بكسر اتفاقية روجرز لوقف إطلاق النار عندما تم تغيير اسم الفرقة من المجموعة ٣٩ قتال إلى منظمة سيناء العربية وسمح لهم بضم مدنيين وتدريبهم على العمليات الفدائية وتم تجريدهم من شاراتهم ورتبهم العسكرية ليمارسوا مهماتهم بحرية خلف خطوط العدو ويقال أن أفرادها هم من ألف نشيد الفدائيين المعروف... استردوا شاراتهم ورتبهم العسكرية واسمهم القديم (المجموعة ٣٩ قتال) صباح الخامس من أكتوبر ١٩٧٣ عندما تم اسقاط خلف خطوط العدو لتنفيذ مهمات خاصة واستطلاعات استخبارية أرضية تمهيدا للتحرير وأطلق عليهم الجيش الإسرائيلي في تحقيقاته فيما بعد مجموعة الأشباح.

الفدائي

عندما حدث العدوان الثلاثي على عام ١٩٥٦ تطوع الضابط ابراهيم الرفاعي ليقود احدى مجموعات الفدائيين التي أرعبت القوات الغازية في مدينة بورسعيد التي ظل يقاتل بها حتى انسحاب قوات العدوان. وبعد نكسة يونيو ١٩٦٧ عبر إلى سيناء ليجمع الجنود والضباط العائدين ويعود بهم. شرع الرفاعي في تكوين مجموعته ويبدأ في مهاجمة العدو بسيناء.

وفي عام ١٩٦٨ عاد الرفاعي من احدى العمليات ومعه أول أسير إسرائيلي هو الملازم دان شمعون (كان عبدالناصر لا ينام قبل أن يعود الرفاعي من عمليات العبور ويتصل به شخصياً ليطمئن منه على نجاح العملية).

وبعد استشهاد الفريق عبدالمنعم رياض في ٩/ ٣/ ١٩٦٩ أثناء تفقده لجبهة القتال طلب الرفاعي الإذن بمهاجمة الموقع الإسرائيلي الذي خرجت منه الطلقة

وعبر ورجاله وقتلوا كل من في الموقع .

في يوم ١٨ أكتوبر تم تكليف مجموعة البطل بمهمة اختراق مواقع العدو غرب القناة والوصول إلى منطقة (الدفرسوار) لتدمير المعبر الذي أقامه العدو لعبور قواته. فقد تقدم شارون ومعه ٢٠٠ دبابة من أحدث الدبابات الأميركية للاستيلاء على مدينة الإسماعيلية.

وعلى ضوء التطورات الجديدة بدأ الرفاعي في التحرك ونظم مجموعة من الكمائن على طول الطريق من جسر المحسمة إلى قرية نفيشة، وما أن وصلت مدرعات العدو حتى انهالت عليها قذائف الـ آر. بي. جي لتثنيه عن التقدم.

وأدرك شارون أن أحلامه تبخرت وانه فشل في أداء مهمته بعد أن رأى اشتعال دباباته وسمع صرخات جنود المظلات وهم يطلبون الرحمة. وادعى الاصابة ويربط رأسه ويطلب طائرة هليوكوبتر تنتشله من الجحيم الذي اشتعل حوله ويترك جنوده

وحدهم يواجهون الموت وشراسة أبناء الرفاعي ويفر الجنود اليهود مذعورين بعد معرفتهم بفرار قائدهم ما دفع بعض القادة اليهود للمطالبة بمحاكمة شارون لفراره من أرض المعركة بعد انكشاف كذبة اصابته ولفشله في تحقيق مهمته رغم كل القوة الرهيبة التي وفرتها له القيادة الإسرائيلية.

الإسماعيلية صامدة

وبينما يخوض رجال المجموعة قتالاً ضارياً مع مدرعات العدو، وبينما يتعالى صوت الأذان من مسجد قرية المحسمة القريب، تسقط احدى دانات مدفعية العدو بالقرب من موقع البطل، لتصيبه احدى شظاياها المتناثرة، ويسقط الرجل الأسطوري جريحاً، فيسرع اليه رجاله في محاولة لانقاذه، ولكنه يطلب منهم الاستمرار في معركتهم ومعركة الوطن.